

القسم الرابع

على هامش الريف

ذبول...

بقلم المؤلفة

وأخيراً اطمأن الشاب إلى صداقتي بعد أن كدت
أياس منه ، وزالت من عينيه نظرة الشك التي كان يطالعي
بها كلما حاولت التقرب إليه ، واختفى الاحترام المتكلف
الذي كان يتكلفه أمامي . وحقيقة لقد كانت الهوة بيننا متسعة
لكنني صبرت وثابرت . ومازلت به حتى وثق بي واطمأن
إلي ، وأصبح ينظر إلي في المستوى الأفقي لعينه ، بعد أن
كانت كلماته تنطلق كأنما هي صاعدة من مكان بعيد الغور .
لقد كان موقفنا شاذاً مضحكاً ، فبالرغم من كوني
صديقة سيدته الهانم ، فقد كنت أحاول التقرب منه ، بينما
كان هو - هو البستاني البسيط - يفرمني ويأبى أن يخاطبني
بغير تلك اللهجة الرسمية الشديدة التكلف . وبدلاً من أن
تسير علاقتنا سيراً طبيعياً يتناسب ومركز كلينا ، بحيث

يتقرب هو إلى ، وأترفع أنا عن التحدث إليه ، كان يتهرب من محادثتي ويتجنب النظر إلى ، فإذا سألته عن شيء أجاب إجابة مقتضبة تتكرر فيها كلمة « سيدتي » بكثرة مملة بينما يكون نظره عالقاً بالأرض دائماً ، كأنما كان يظن أنني لست بريئة في التحدث إليه ، وأنني لا أتنازل لمحادثته إلا سخرية به أو تهكما عليه ، فإذا أحسن الظن بي فلا أقل من أنه كان يعتقد أنني لا أمنحه كلماتي وعطفي إلا كما يمنح المحسن السائل دراهمه !!

وحاولت كثيراً أن أجعله يفهم أنني لست من الثراء كما يتوهم ، وأن صداقتي للعائلة الثرية ليست لتساوينا في المركز والثراء ، وإنما لأن لي فضلاً على سيدته الصغيرة الأنسة خديجة هانم أيام كنا نطلب العلم في مدرسة واحدة ، وكان لي حظ من التفوق أمتاز به عن بقية الزميلات ، وفي دور العلم حيث الجميع سواء ، صارت خديجة هانم وهي ربيبة العز والثراء ، صديقة لي ، أنا الفتاة التي لا حظ لها في مجد أو ثراء ! غير أن هذا لم يقنعه ، وازددت أنا تشبثاً بنيل ثقته لأعلم ماذا وراء تلك الشباب البالية ، ولأرى أي نفس تتعمق في هذا الجسم البادى

الشحوب ، وأى أسرار تختفى وراء تلك النظرات الشاردة العجلى ، فكنت أجلس بجانبه وأتناول الطعام من أمامه إذا مررت وهو يأكل ، فإذا لمحت قذارة فوق ثوبه الأزرق الباهت ، مددت يدي فأزلتها دون تكلف أو امتعاض ، وهكذا بدأ يطمئن إلى ، ويثق بى بعد طول تشبث وعناد .

كنت أتردد على قصر صديقتى كثيراً لشغفى بالجلوس وسط أحواض الأزهار واستلهام الخيال فى هذا الهدوء الشامل ، ووسط ذلك الجمال الطبيعى الساحر الأخاذ ، فقد كنت محرومة من ارتياد الحدائق العامة احتراماً لتقاليد الأسرة ، ولأن حريتى ستكون محدودة ما دمت محتجة حريصة ، ولهذا لى أن أستعوض بجمال حديقة القصر عما فقدته .

وكان كوخ يوسف - الشاب البستاني - يكاد يختفى بين الحشائش الطويلة وشجيرات البرتقال ذات الرائحة النفاذة العطرة ، ولا يصل المرء إليه إلا بعد أن يمر على

أحواض منسقة بديعة من زهور البنفسج الزرقاء وزهور
العايق البيضاء . كان الشاب فناناً يعرف سر مهنته ويتفانى
في عمله ، ويسرف في إرهاب نفسه كأنما كان ينشد في
العمل عزاء وسلوى عن شيء نجهله !

ذهبت إلى القصر في أوائل شهر يونيه الماضي حيث
اشتدت قسوة الحر في بعض أيامه إلى درجة كانت تصهر
فيها أبدان أبناء الطبقة الثرية المترفة ، وهي أجسام ناعمة غضة
لينة ليس فيها خشونة أجسامنا وليس لها تحملنا . وكان
طبيعياً أن تعجل أسرة خديجة بالفرار من القاهرة إلى إحدى
موانئ الاصطياف ، لأن لأفرادها أجساما يكاد يؤلمها
مرور النسيم ، إلى أن ذكر أن « حمدي » أخا خديجة شاكته
يوماً شوكة الورد في إصبعه فاستدعى له طبيب العائلة !
ترى كم منا من لدغته العقرب ، أو أصابه صداع هائل ،
فاكتفى في الحالة الأولى بإسعافات ذويه الأولية ، وقنع
في الحالة الثانية بقرص من « الأسبرين » ؟ ذهبت لتوديعهم
فوجدت يوسف ينسق تاجاً بديعاً من الزهور البيضاء
والزرقاء ، أية فتنة وأي سحر في هذا التنسيق الفني
المنسجم البديع ! حييته فابتسم وصالحني ، ثم جلست

بجانبه أناوله الزهيرات ليتفرغ هو للتنسيق ، فلما انتهى سألتني
عما إذا كان التاج قد أعجبني ؟ فتعاضيت عن الجواب وقلت :
ما أبدعها هدية تقدمها يا يوسف لخديجة يوم سفرها ! فابتسم
ابتسامة ساخرة وقال هامسا : ليست لها . فتساءلت مندهشة :
ولمن إذن تكون ؟؟؟ وهنا تجهم وجهه . وغاضت تلك
الابتسامة الشاحبة التي كانت كقطعة من وجهه ، فحسبت
أنى آلمته وأردت أن أغير مجرى الحديث فقلت أسأله . .
ترى لماذا اخترت اللونين الأبيض والأزرق لزهيرات
كوخك وتاجك ؟ فصمت برهة وقال في ذهول : - هذا
الزهر الأبيض الناصع البياض كبراءتها وحبها وطهرها ،
وهذا اللون الأزرق الباهت كجمالها وشبابها ، أو ليست
هى الأخرى زهرة شاحبة يكاد يصيبها الذبول ؟ كادت
الكلمات تفر من بين شفتى لتسأله (من هى ؟) لكنى
أدركت أن ذلك ربما أذهب عنه ذهوله فيصمت . ولذلك
قلت وأنا لا أفهم ما أقول : مسكينة ! لها الله ! لشد ما يهمنى
أمرها ! فقال يوسف وهو لا يزال فى غيبوبة مطلقة وكأنه
يخاطب نفسه : قذفوا بها وهى الزهرة الناضرة بين مخالب

الوحش المفترس ! باعوها بالمال وذهبوا يتمتعون بثمرتها
وهي وحدها تذبل وتموت ! ماتت أمها وهي في الثانية
عشرة من عمرها . قلنا لا بأس ، فستجد من عطف أبيها
ما ينسيها الوعة اليتيم . وهناك في الريف المصرى الساحر ،
حيث الجمال والفتنة والسكون ، نما حي لها ، فلما تزوج
أبوها - وهو عمى - بعد أربعين يوما من وفاة أمها الشابة ،
عولت على أن أحياها من قسوة زوجة عمى ! كانت هذه
الزوجة عقيما قاسية القلب متحجرة الفؤاد ، لا تتعفف عن
نيل ما تشتهى ولو خاضت في سبيل ذلك بحرا من الدماء !
فأصبحت (زهرة) الفتاة المدللة الصغيرة في جحيم من الشقاء
فهى لا تكاد تظفر براحة ولا طعام جيد ولا حنان . . .
كان عليها أن تنقل - السباح - الى الحقل خمس عشرة مرة
فى اليوم على ظهر الحمار الأعرج الهزيل حيث تبخر الشمس
قطرات قواها وشبابها وجمالها . وكان عليها أن تجمع روث
البهائم كل يوم وتعدده أقراصا للوقود . فإذا أقبل الليل
وتراخت الأجسام تبغى الراحة ، تفرغت (زهرة) الطفلة
لخدمة الدار ! ولم تكن المسكينة تشكو ، لكنى كنت

أفر من عملي أحيانا ، مضحيا بأجري كي أنتظرها على حافة
الترعة ، فأقوم بتوصيل الحمار إلى الحقل والعودة إليها ، وهى
جالسة مختبئة عند أمى ترتجف رعبا وفزعا ، وكانت تمنحنى
من عطفها الشئ الكثير ، لكننى فضلت أن أترث حتى
تكبر وتنمو ، فمن الإجرام أن أفاجئها بحبى وهى بعد
طفلة ساذجة صغيرة .

كان شقاؤها يمتنى ، وكان أملى فى أنى سوف أسعدها
فيما بعد يحينى ، وما زلت بين إشفاق يميت وأمل يحيى ،
حتى فوجئت القرية بإعلان خطوبة (زهرة) . ممن ؟ من
(الشيخ متولى) فقيه كتاب القرية ! روعتنى الصدمة
وفجعنى التألم لها أشد من التألم لنفسى . (زهرة) الطفلة
الجميلة الصغيرة ، تزف إلى الشيخ نصف الأعمى ، الوحشى
الطباع الشرس الأخلاق ، الذى أربى على السبعين من عمره ؟
لم أبك ولم أثر ، وإنما تملكنى حزن عساف مستبد ، جعلنى
مطارقا ذاهلا أعمل كآلة صماء ، وكنت أتهيب الذهاب إلى
(زهرة) حتى لا تقتلنى رؤيتها حزينة ثائرة ، ولكنها
أرسلت تدعونى إليها فذهبت ، ولقد كنت أخشى أن يؤلمنى

حزنها فإذا بفرحها يقتلنى قتلا . رأيتها فرحة مجنونة فى
فرحها تقلب الشياى الحمراء التى أعدوها لها فى غبطة ظاهرة
وفرى أحمق ، سألتها : هل أنت سعيدة ؟ قالت ولم لا ؟ أو
ليس هو السيد المطاع فى الحى ؟ انظر يا ابن عمى : لقد
أصبحت سيدة فلم أعد أذهب إلى الحقل وراء الحمار ، ولم
أعد أقوم بعمل الأمس المرهق ، وفى كل يوم يرسل لى
(الشيخ متولى) قطع الحلوى وبعض الفاكهة .

أما ثوبى المزمى الذى كان كقطعة من جسدى فقد
قذفت به بعيدا ، إذ ما حاجتى إليه وقد صار لى عشرة
أثواب ؟ ثم انظر . . هذا النحاس الأحمر البراق لى وحدى ،
وهذا الصندوق المزركش سىصبح مستودع ملابسى العزيزة ،
وهذه الحشية الناعمة سأنام عليها بعد الحصار البالى ! ما بالك
تبدو واجما لقد كنت أنت الشخص الوحيد ، الذى غمرنى
بحنانه أيام تعاستى ، فاليوم حيث يذهب شقائى إلى حيث
لا رجعة ، لا بد لك أن تباركنى ! وقفزت من مكانها وأنا
حائر ، ثم طبعت على شفتى قبلة خرساء لا زلت أحس
بحرارتها حتى اليوم .

كانت كلماتها الساذجة تعذبنى ، كم وددت لو أنها تثور !
ولكن لم أقل إنها طفلة ؟ طفلة تماماً لا تهتم إلا بالحلوى
والثياب الحمراء ، وزوجة أبيها تمعن فى تضليلها .

وتسألتنى لماذا رضى أبوها ؟ لقد دفع الشيخ ثمنها ،
كم تظنين ؟ أربعين جنيهًا ، وهو مبلغ لا يحلم به الحاج
(سيد احمد) عمدة القرية ؟ ولقد زفوها إلى الشيخ وهى
حتى اللحظة الأخيرة تملأ الدار ضحكا وضجيجا ، وكنت
هجرت القرية شهرين ، فلما عدت تفقدت الطفلة الجميلة
اللعوب فلم أجدها ، وإنما وجدت مكانها امرأة ناضجة
متفجعة تعسة ، لا تضحك ولا تبكى ، ولكنها تبدو ساهمة
شاردة . . . دائما وفى كل وقت ، وقد فهمت المسكينة مدى
حبى لها لزيد فى شقوتها ، ولكنى خنقت حبي فى صدرى
وحطمت قلبى فى الوقت الذى بدأت هى فيه تهتم بى . لم أجد
بدأ من مشاركتها محنتها ، سعادتها هى كل شئ . عندى
فأما جسمى الفانى فلا شأن لى به ، وهأنذا أذهب إليها كل
أسبوع لأحمل إليها تاج الأزهار ، رمز الطهارة والجمال
الشاحب الذابل ، وهناك . . . فى سجنها المظلم نجلس ساعة

صامتين لا تتكلم ولا تتحرك ، وهذه اللحظات هي النعمة
التي تبقت لى ولها من الأمس الدابر البعيد .
إنى لا أعرف لحيأتى نظاماً ، ولا لمستقبلى خطة ،
لا إرادة لى ولا رجاء . . . إنى أمضى وسط تيار الحياة
إلى حيث يحملنى ، وأما هى : فلها الله ؟ !

وسكت الشاب ، ثم أخذ يحملق فى الجو ونظره عالق
بالأفق الهابط البعيد ، فقامت من مكانى تسوقى قدماى على
غير هدى فى منعطفات الحديقة ، ولما عدت إليه بعد قليل ،
وجدته يعمل فى الحديقة وعلى فمه ابتسامته الزاهلة الشاحبة
وفى عينيه نظراته الشاردة الجوفاء .



قصة ريفية واقعية

بين نارينه

بقلم المؤلفة

فى كل مظهر من مظاهر الحياة قصة ، وفى كل ناحية من النواحي مسرح تمثل عليه هذه القصص الحقيقية . ولو تلمس الإنسان حياته ونظر حوالبه لأدهشه أن يرى نفسه يمثل دوراً .

نشط التأليف وكثرت الروايات . وضائق مكاتبنا عن هذه الكتب الروائية الكثيرة ، وضائق وقتنا عن تحمل هذه القراءة المتابعة مع أن فى نواحي الحياة الكثير من هذا النوع ، وما يخفيه عنا إلا ضجيج الحياة والتنافس المر والجري وراء المادة . وهأنذا اليوم أسجل قصة لم يسدل عليها الستار بعد ، ويغنيها عن البلاغة أنها ليست كمثيلاتها التى توضع للتسلية ، بل هى حقيقة تقع حوادثها الآن فى ريف مصر ، وعلى المسرح تقف البطلة الصغيرة حيرى تنتظر إسدال الستار ونهاية المأساة . هى قصة حقيقية تمثل

جشع الآباء - أعنى البعض منهم - وضعف الفتيات ، وتحكم
المادة في الحياة تحكما مرآ مؤلماً .

مختار بك من أعيان قرية . . . بالقليلية في بسطة من
العيش وسعة منه ، يملك ضيعة تبلغ مائة وخمسين فداناً ،
ومنزله المبنى بالطوب الأحمر وسط الأعشاش الصغيرة
بالبن ، يبدو كالقصر الشاى الذى يضم بين جدرانها العالية ،
حياة غامضة لا يعرف عنها أهل القرية ولا أعرف عنها أنا ،
إلا الشئ القليل ، ومختار بك رغم عيشته فى صميم الريف ،
يعيش عيشة المدن فملابسه وملابس أهله وأثاث بيته ونظم
معيشته كلها لا تمت إلى الريف بصلة .

رزق بابة متوسطة الجمال لكنها جذابة حسناء . فى
عينها سحر ، وفى صوتها الرنان شئ من الصرامة والأمر ،
وفى فمها الصغير الغليظ الشفتين ، كثير من الغموض
والإبهام . ورزقه الله بعد اليأس ذكراً يرثه ويخلد اسمه
العظيم الكبير سماه « يحيى » وهو اليوم فى الثالثة من عمره ،
وكانت الابنة تتركب عربة أيها كل يوم إلى بنها ، حيث تتلقى
العلوم فى المدرسة الابتدائية ، ثم التحقت بمدرسة المعلمات
الأولية ، وعليها التنقل والمشاهدة أن المال لا يكفى لسعادة

الإنسان إن لم يكن هادئ البال .
أفكارها في الحياة لا بأس بها ، وهي أرقى بكثير من
أفكار مثيلاتها الثريات المترفات ، وعجيب أن تشب الفتاة
ذات نفس رقيقة نبيلة رغم ما أعلمه من استهتار والدها .
رأيتها يوما وقد وقفت تسألني في حياء جم أن أسمح
لها بالجلوس بجاني ، لأن القطار - وكان ذاهبا من بنها إلى
ميت بره - لا يحوى سوى عربة واحدة للدرجة الثانية ،
فقبلت مرحبة وكان ذلك بدء تعارفنا .

وسرني منها طيب وفاتها ، ووجهها الصبياني الساذج
ونظراتها العميقة البعيدة الحائرة ، وبساطتها المدهشة رغم
ثرائها ورغم . . استهتار أبيها .

عائلة الشيخ دسوقي ، عائلة قديمة تسكن القرية نفسها
من أمد بعيد ، متوسطة الجاه ، يكدرها الكثيرون في
الحقل طول النهار حتى إذا عادوا ، قنعوا بملابسهم التيلية
البيضاء المزهرة وجاسوا على المصطبة . منتظرين والدهم
العم دسوقي ، فإذا حضر أخذوا يقصون عليه أحوال
أرضهم ، فيذكر أحدهم حالة الغنم ، والثاني اهتمامه بالرى

أثناء الدور ، والثالث حالة المزروعات ، وهكذا حتى يفرغوا ، وبعدئذ يدخلون إلى وسط الدار حيث تأتي - مشنات - الخبز وإناء اللحم المسلوق ، وأطباق الخضار ، التي لا لحم فيها ، فيوزع العم دسوقي عليهم اللحم ، كل رجل وزوجته وصغاره .

عيشة ريفية صميمة ، لكنهم كانوا سعداء بها ، يزيدهم استهتار جارهم الثرى قناعة واعتباطا ، وكانوا مشهورين بالكرم والنخوة لأن جدتهم - كما يقول العم دسوقي - كان من كبار الأعراب . وكان أصغر أولاد العم دسوقي ، واسمه حسين ، طالبا بمدرسة دار العلوم ، ولعله كان أسعد إخوانه ، فهو يجمع بين تحصيل العلم وبين الأصل المجيد والخير الوافر .

تعود حسين أن يقضى عطلته الأسبوعية بين أهله ، وكان يقضى الكثير من وقته في مضيعة جارهم الثرى المتمدين مختار بك ، محاولا أن يخترق ببصره تلك الجدران السمكة ليرى ما وراءها ، أو يسير متجولا في الخلاء ، ينشد الشعر والوحدة والالهام .

وكان الجار الثرى يرحب به ، لأنه الشخص الوحيد

فى البلدة ، الذى يلبس (افرنجى) ويتكلم بلهجة مصرية
أرقى من لهجة الفلاحين (الأجلاف !)

وكانت نجية فى الرابعة عشرة من عمرها ، صغيرة
حازمة ، ساذجة عالمة ، وكثيرا ما كان حسين يلتقى بها أمام
الدار وفى الحقول ، وعلى حافة التربة ، تشاهد حاملات
الجرار . وكان يحسبها مثالا للغرور والكبرياء مثل أبيها
المتعجرف ، ولكن أدهشه أن يراها كثيرا ، تساعد بعض
القرويات على حمل جرارهن رغم ابتلال ثوبها الحريرى
الأنيق ، وحذاءها اللامع . ولاحظ أنها لاتأفف من محادثة
القرويات والإصغاء إليهن فى ثقة وتواضع ، وهى ابنة
الرجل الفظ الكسول ! كانت ملاك القرية كما يسميها
الجميع ، وراع الناس منها أن تهجر القصر طول النهار ،
متنقلة كالفراشة البيضاء ، حتى إذا ما أقبل الليل ، دخلت
البيت مطأطئة الرأس .

أحبها حسين حبا قويا غلابا ، وعلمت هى منه ذلك
فصمتت وإن لم تر فى ذلك غرابة أو شذوذا . وتجنبت
جهدا لقاءه ، لاترفعا منها ، بل حياء وإشفاقا عليه أن يذهب
ضحية أمل لاسبيل إلى تحقيقه ، وأن يقامر بحياته فى التعلق
بسراب كاذب .

وتحادثا طويلا ، وحاولت أن تقنعه أن أباه لا يطاق ،
ولكن الأمر كان قد خرج من يده ، وأصبح لا يفهم كيف
يبغض تلك الصغيرة النبيلة الجديرة بالحب والإعزاز .

وأوشك حسين أن يتم دراسته فتقدم إلى أبيه الشيخ ،
يكشف له عن حبه ، فهاه الأب وذكره بتقاليد الأسرة ،
التي تأتي زواج الشاب من غير بنات أسرته ضمانا للخلق
والبقاء ، وهناك بنات أعمامه كثيرات . لم يأبه الشاب
لغضب أبيه وتقدم إلى أب الفتاة يطلب يدها ، فزجر
الرجل وقال في احتقار :

يا إلهي ! ابنتي أنا ؟ من أنت ؟ مادخلك وماذا تملك ؟
ألا فاذهب إلى إخوتك في الحقل ، وانظر كيف يكون الفقر
والقذارة واعرف من أنت - أسمعني ؟

خرج الشاب يجر قدميه جرا ولم يذكر لأبيه شيئا ، بل
ولم ينقم على الفتاة وقاحة أبيها وقسوته ، وأكتفى بما سمعه
من أن الفتاة غضبت وصرحت لأبيها أنها كانت تسعد مع
حسين رغم فقره وقذارته ، وأن الأدب كان يقضى عليه أن

يصرفه عنها في لطف واحترام ، فازداد لها حبا ، وعول في غضبة الرجل المحب أن يكون لها أهلا .

أخذ يدرس في مدرسته نهائياً ويتعلم اللغتين الفرنسية والإنكليزية ليلاً حتى أجادهما ، فالتحق بامتحان المعادلة في الشهادة الثانوية قسم ثان وكان من الناجحين .

حينئذ ترك مدرسته أقرب ما يكون إلى إتمام الدراسة بها ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وقسا على نفسه في العمل والاجتهاد ، غم عذابه ولوعته ، معتقداً أنه بذلك يسير إلى أمله سيراً حثيثاً ، لقد عاهد نفسه أن يكون لها أهلاً ... فليعمل ! وطالت الأيام ، ثم قصرت فجأة ، ثم إذا به يرى اسمه في طليعة قائمة الناجحين في الدبلوم فحمل أمله وثروته ، وركب القطار إلى القرية .. إلى أب الفتاة .

ضج العالم لنزول أسعار القطن واشتداد الأزمة ، وأصبح كل فلاح يحمد الله أن وجد كسرة وستره ، ولكن رجلاً متمديناً مترفاً مثل مختار بك ، كيف يقنع بما قنع به

المزارعون البؤساء ؟ ! إن سحب الأزمة ستنقشع قريباً ،
فليأذا ينزل من علياء سمائه !

لقد يكفي نفراً كالعم دسوقي مثلاً أن يزرع أرضه قمحاً
فيأكل ، وبرسيا فتأكل غنمه وبهائمهم ، فيبيع من الأولى
ما يكفي لدفع الضرائب ، ويأخذ من الثانية ما يأتد به .
أما مختار بك الثرى الوجيه فلا يكفيه شيء من هذا ،
لا يكفيه إلا « البنك الألماني الشرقي » يغترف منه ما يتنعم
به ، وحواله أكباد تحن إلى الرغيف العفن ، وبطون تتضور
جوعاً . وكان أطفال القرية كلها يقفون متحسرين دهشين
حينما يشاهدون أمام بيته ، بقايا عظام اللحم وقشور اللوز
والبندق والفاكهة !

وضاق (البنك) عن مطالبه ، أو ضاقت أرضه عن
ضمانة البنك ، والأزمة متباطئة لم تنفرج بعد ! ووقعت
الكارثة !



ذهب حسين إلى القرية بعد أن هجرها أربعة أعوام ،
فراعه أن يجد شيخاً طاعناً في السن غريباً عن القرية ، يسكن
في بيت من أحبها وأخلص لها الحب ، ولكن ساعة واحدة
كانت كافية ليعرف كل شيء !

غلى الدم حاراً فى عروقه . . . يجب أن يسدل الستار
على ماضى وينقذ الصغيرة النبيلة ! وللمرة الثانية تقدم إلى
أيها ، وعرفه بنفسه ومركزه الجديد ، ثم طلب يد ابنته ،
فذهل الرجل برهة ثم وعده بالقبول إن قبلت ابنته .

كتب حسين خطاباً إلى الفتاة وناشدها المروءة والنبيل
الآتطعنه فى صميم آماله . فأكبرت هى منه إقباله عليهم حين
أدبر الدهر منهم ، بينما أعرضوا عنه أيام عزهم ومجدهم .
وتقدم إليها أبوها ، لاليعرض عليها طلب الفتى وإنما طلب
المثرى العجوز الذى سكن بيتهم والذى ضجت القرية من
عربدته وسكره . . . ذلك الشيخ المدم الذى قضى عمره
الطويل متنقلاً بين الحانات والوجوه الحسان حتى سئمتها
نفسه ، فرأى أن يقضى مابقى من عمره - وإنه لقليل - مع
تلك الصغيرة الحسنة على أن يرد إلى أيها أرضه وثروته !

وبكى الأب مستعطفاً ، وبكت الأم والهة حائرة ، وبكى
الطفل مشجعاً إياها على قبول الصفقة وإنقاذ العائلة ، ومن
خلف الثلاثة ، ظهر شبح حسين باكياً ! حسين الذى أخلص
لها الحب ، وهو بعد الفتى الشهم ، الكبير النفس ، المعذب
القلب ؛ حسين الذى تحمل له فى قلبها أطهر عاطفة وأصدق

حب ، والتي كانت تود أن تعيش لترعى سعادته فقط !
هل تتزوج منه لتكافئه إخلاصا بإخلاص ، رغم
ثقتها أنها غير أهل له ؟

ولكن . . . أبوها الذي رباها ، أمها التي حملتها ، أخوها
الطفل البريء ! هل تضحي بهم جميعا من أجل حسين ؟
إن أباهما لم يستمع لأنينها فيما مضى ، فهل تستمع هي
لبكائه الآن ؟ ولكن هل من الأب ينتقم الإنسان ؟ وكيف
إذن يهنأ لها عيش وهذه عائلتها تهوى إلى حضيض التعاسة ؟
هل تتزوج العجوز السكير فتتخذ أسرتها وهم بعد
سيقدرون تضحياتها ؟ ولكن حسينا لاقى كثيرا ! عادي
أهله ، وهجر قريته ، وتحمل إهانة أبيها غنيا ، وغطرسته
فقيرا ، فهل تكافئه بالبحود والذكران محطمة قلبها وقلبه ؟
وهل تنأ بانقاذ أهلها وهذا حسين الذي تحبه ، يقتله اليأس
أو يسقمه المرض ؟

إذا تزوجت حسينا فشبح عائلتها سوف يعكر عليها
العيش وسيدكرها دوا ما بأنها ملكت في يوم ما سبيل سعادة
أبويها وأخيها فأحجمت عن منحهم تلك السعادة .
وإذا تزوجت المثرى العجوز ، فشبح حسين سوف

يتبعها ، ويلاحقها في نومها ويقظتها ، ليذكرها في كل لحظة بأنها قاتلة . . مجرمة !

هي حيرى فماذا تفعل ؟

هذه هي القصة ، لم أحاول تنميقها أو ترتيبها ، خبرتها بنفسى وأطلعتنى على الباقي صديقتى وسألتنى فى النهاية « ماذا ترين ؟ إبنى أنكر نفسى وأجهل سعادتها ، لكنى لا أستطيع أن أنكر أبى أو أتنكر لحسين . . . إبنى فى حاجة إلى السلوى والمشورة فماذا ترين ؟ »

وإبنى إذا أبسط الآن الحل الذى رأيته لها ، أرجو ألا يتهمنى أحد بنكران التضحية فى سبيل الآباء ، بل يجب أن نقدر أولا الظروف التى وجدت فيها الفتاة . ولا يمنعنى هذا من أن أصيح بكل قواى ، بوجوب طاعة الآباء وبذل الحياة فى سبيل سعادتهم إذا كانوا رجالا ، وإذا كانوا من جانبهم يقدرون النبوة كما يقدرون الأبوة . . .

خاتمة القصة فى رسالة

من المؤلفة الى البطلة

أختى

لك الله يافتاة . . . قذفت بك الأيام السوداء وسط
غمرات من الأسى والحيرة ، كأن لم يكفك ألم صامت ،
وثورة كامنة ، وحزن دفين تعمق فى نفسك وأنت بعد
طفلة فى المهد !

ماذا يريد أبوك وصديقك ياتعسة ؟ أ يضيرك أن
أسميك هكذا ؟ ولكن بكل ما فى هذه الكلمة من عاطفة
ورثاء وحنو ، أتحدث إليك من قلبى ، وللقلوب ياتعسة
أحاديث !

وكأنى بك تحسبين صمتى انشغالا عنك بالامتحان كما
تقولين ، وكأنك لم تحملقى فى الأفق البعيد ، لترى أية فتاة
ثائرة باكية قرأت كلماتك ، ولكم حاولت أن أكتب إليك
فمنعنى . . . لا أعلم ماذا ! إنها كتلة صغيرة تتكون من لاشيء
تقف فى مجرى الهواء عندما لا يقدر الإنسان على كبج جماح

عاطفة البكاء ! سميها ماشئت واختارى لحالى ما يلذك من
الأسماء . ولكن ، ألسنت ترين معى أننا نسير فى حياتنا إلى
غاية مجهولة يريد لها لنا غيرنا فيندفع بعضنا فى طريقها فى
جهل وعمى ؟ جهل فى القلوب وعمى فى الأبصار ، رغم
ما نشعر به من إرادة وحذر ، ورغم هذه الأعين الواسعة
التي فى وجوهنا وكأنها ما وجدت إلا لتحمل إلى قلوبنا
الضعيفة رسالة الهم والشجن ، وإلى عقولنا الظامئة ، قليلا
من المعلومات المهوشة والتجارب الجوفاء ، وما أردأ
التجارب من موصل لحرارة الحياة ؟

وهنا أتساءل : لماذا لم تشبى مستهتره كأبيك يافثاة ؟
إذن والله فما كان ألد لنفسك الباردة من مائة وخمسين
فداناً ، وهى ليست مائة وخمسين جنيهاً ، تقدم لك صداقا
وما كان أسعدك بثلثك إلا كوام الصفراء ، تعبت بها يداك
فى لذة واستهتار !!

ولكنك فتاة لامادية ... هكذا أعرفك ... أوتريدين
أن أذكر لك بعض ما أعرفه عنك ؟

أعرف فيك تلك الفتاة المليئة بحرارة الحياة ، ولو أنها
نفسها تتذمر من تلك الحياة وتنقم عليها ، بل كأنى أرى

بعينى النفاذتين ما تحت ثيابك من ثوران عاطفى ناقم على الحياة وما فيها ، أعرف فيك ذلك الضال المهتدى الذى يشور فى صمت ، ويبتسم فى مرارة ؛ وأحس بما فيك من خواطر تحاولين جهدك إخفاءها ، حتى لا أرى فيك إلا تلك الوادعة الهائلة ، التى تنعم بثروة أبيها ولا تفكر فى شيء ولا تسأل عن شيء ؛ وأصارحك بأنه كان يحلو لى أن أرقب وميض شعلة عواطفك عن كذب ، وأن أراها تتأجج تحت رماد الحياء والمداراة كزبد الأفران العالية ، يطفو فوق الحديد المنصهر ، فترى العين فيه سطحاً ترائياً أدكن خلواً من البريق ، حتى إذا غلى المرجل انفرج الزبد ورأينا اللحم واللهب ؛ نرى لهب الحديد المنصهر يشوى كبذ ذلك الأتون العالى ، ولكنه لا يئن ولا يتوجع ؛ هكذا أعرفك ، وهكذا تقدمت تستشيرين من تعرف عنك هذا وأكثر ، فى أمر هو الحياة والمستقبل .

يا لله كم تؤلمنى ثقتك ؟؟ لماذا عرفتك ؟ ولماذا ذهبنا إلى أبعد حدود الإخاء والثقة ؟ ألتحكمنى اليوم فى مستقبلك ولا أكون فى موقف المسئولة عن سعادتك ؟ إني لا أريد

أَنْ كُونَ لَكَ جَلاداً ، وَأنا بعد لا أطيق إلا أَنْ أراك سعيدة
تضحكين وتبتسمين ، ولو أنها ضحككات السريرة الباكية ،
وبسمات القلب النائر .

على أنى لن أصمت ، بل وأذهب بعيداً فأدلى إليك
بري على سبيل الأمر والإلزام ، وأنت يا أختاه لا تحسنين
التصرف ، وأملك بجانبك تسيل دموعها ، وأبوك يبكي ،
والشباب يتألم أعمق الألم ، فدعيني إذن أرشدك إلى الطريق
الذى أراه ، فإن ظفرت بالسعادة وأنت سائرة فيه فما أسعدنى
بك ، وإن غلبت عليك الشقوة فما أعمق ثقتك بحسن نيتى
وإذن فما أقربك إلى الصفح !

لن آمرك بترك أهلك والخروج عن الواجب رغم
استهتاره ، ولكنى أيضاً لن أجعل منك يداً مجرمة تخنق
قلب الشاب الذى أحبك لسمو نفسك . وقبل أن تغرقينى
باعتراضاتك ، أسألك لماذا لا تسألين أمك عن سبب إهمالها
فى رعاية أهلك أيام كان ثرياً مستهتراً ؟ ولماذا لا تسألين
أباك كيف ينفعه ثمنك الذى يدفعه العجوز السكير وقديماً
لم ينفعه ماله ؟ ولم لا تسألين نفسك ، كيف تقبلين المجاعة
الروحية والدمار النفسى ولن يقول حسين والناس : مسكينة

ضحكت بكل شيء في سبيل أبيها ، بل سيقولون : مستهترة
أغواها الأصفر الرنان ، وسوف تمهد لنفسها حياة مليئة
بالحرية والغواية ؟

ثم هل تظنين أن من البر والتضحية أن تفتحي لأبيك
باب الغواية والضلال بعد أن سدته في وجهه الحاجة ؟
وأن تضحى بنفسك وبالشباب البري ، ليكبر لك أخ
متلاف مستهتر كأبيه ؟ وأن تقتلي نفسا بريئة لتضمني المال
لأمك التي أغمضت عينيها عن مساوي زوجها أو شاركته
فيها لست أدري ؟

لا يا أختاه . . لن ينطق المأذون بالكلمة التي تربطك
بهذا السكير ، إلا وفي ثناياها الحكم عليك بالشقاء ، وإن
ترزقي إلى هذا المهدم المفسود إلا على أنقاض سعادتك ،
ولكن هل تفرين من أهلك في محنتهم ما دام قبس النجاة
يغريك من بعيد ؟ وهل تتهزين فرصة الضعف من والدك
المتنمر الجبار ، لتتركه في بسمة ساخره ؟ لا . . . أنا
لا أرضى بذلك وإذن فأنصتي إلى أوامري ، ولا يعميك
الحاضر عن مستقبل غاص بالشقاء والجنون ، أو حافل

بالسعادة والسكون ، واذكري أننا في يوم له ما بعده فلا
حكم غير العقل .

« نزومى مسينا » ترى ماذا تحدثه تلك الكلمة فيك
من دهشة ، لأنك حاولت - ولكن عبثا - أن تظهرى
لى أن اهتمامك بسعادة أسرتك أكثر من اهتمامك بأى شىء ،
وأنت مستعدة للحكم مهما قسا ؟

« وأنقرى أباك » من الضائقة المالية والخلقية ، قدمى
له صداقك وما تملكين من حلى ، وليكن الجميع مائتي جنيه ،
ليكون رأس مال لمتجر متوسط يبيع فيه البقالة أو الأقمشة
والأولى أفضل لاحتياج الناس إليها دائما حتى فى الأزمات
الطاحنة ، وعليه أن ينشئ نفسه من جديد نشأة شريفة
رزينة ، وأن يكون بهذا المال وأراه كافيا - ثروة واسعة
يستعين بها على تربية ولده تربية مهذبة صالحة .

« والهمسى فى أذن أمك » أنها مسئولة عن شقاء الأسرة
قدما وحديثا ، رغم ما تعتذر به .

« وهزى أفعال الطفل » ليملاء فراغ بيتك الحديث

بضحكاته الرنانة ولتربيته التربوية الأولى الاساسية ، ريثما
يستقر حال أهلك .

يبقى بعد هذا ، رأيي في تنفيذ الحكم .

أما الشاب فسيقبل راضيا مغتبطا ، ولن يضيره أن
تذهبي إليه بقلبك وحبك ، لاجليك وأثائك ، بل وستكفيه
عبء هذه المفرشات المقدسة التي تسبق العروس إلى بيت
زوجها لتحتل الهواء الطلق منه ، وإذا قبل فما أجدره بالحب
وما أحراك بالعمل على إسعاده !

وأما أبوك فيجب أن يقبل ، وإذا عز عليه أن يتحول
من غنى مترف إلى تاجر شريف ، فدعيه في غوايته ،
وأشهدي الله والناس ، أنك فعلت ما في طاقتك ، وأن أباك
لا يريد الحياة العملية الشريفة ، ولكنه يريد المال ، ليمهد
له طرق الشر والضلال .

وأما أخوك فسيمنحكما من السعادة أكثر مما تمنحانه
من رعاية ومال ، وستجعلينه رجلا ، وحسبك بعدئذ أن
ترى غرس يديك يسير في معترك الحياة مجاهدا وشريفا .

هيه !! أليست قسمة بديعة تقومين بعملها وتحركك

فى الخفاء ىدى وىشاركك قلبى ؟ لشد ما حاولت يا أختاه
بعد قراءة رسالتك الملهبة ، أن أتحرك من قىء كلماتك النارىة
اللى طوقتنى بطوق من دثارها المؤلم ، وشبكة من خىوطها
الحرء ، وأن أنسى نزع البكاء اللى كانت تتواطأ على صفحة
خطابك كى أحكم عقلى وأخرج لك بفكرة ىراها الناس
حكىمة ؟ ولكنى لم أفلح ، فالناس ىحبون المال فى إسراف
وأنا لا أستطىع أن أقبل تضحية الواجب والحىاة فى سبىل
هذا المعبود الأصفر ، ولىس ذنباً أن أرى ما لا ىراه الناس
(فأى هكذا خلقت) . فإذا نصح لك أحد برأى غير مارأىته
لك فلا تنصتى ، وثقى أن فراسة الإىمان والحب والإخاء
لا تخىب .

وبعد فأنا أنزهك عن النظر إلى تلك الثروة الطائلة اللى
أضعتها عليك ولا زلت أزىحها بىدى بعيداً عنك . . .
لك من أشعة الشمس ساعة الغروب ، تشهدىنها وفى
نفسك غبطة وفى قلبك حىاة ، ما ىغنىك عن أكوام مكدسة
من الذهب ، لا تستطىع أن تسكب فى قلبك قطرة واحدة
من الحىاة ؟

لك من ضوء القمر الفضى اللامع ، تستقبلىنه فى ظلام

الليل وأنت في غمرة من السعادة النفسية ، وفيض من جمال الحياة ، ما يغنيك عن كثير من المال ، تبعين به حرارة الحياة وحياة الهدوء

هي أكلات ثلاث يا عزيزتي ، لا طاقة لمعدتك على تحمل أكثر منها ، وهي سترة واحدة لا تتفاوت في تأدية الغرض سواء كانت من نسيج الذهب أو القطن ، فماذا وراء زواجك بالغنى يا أختاه ؟

ثقي أن مكانا عزيزاً يعده لك زوجك المثقف في قلبه خير من قصر نخم يشيده لك هذا السكير من ذهبه ، وأن زهرة صغيرة يهديها لك زوجك رمز إخلاصه وحبه ، أسمى من عقد من أثمن الجواهر ، يحنق به الآخر عنقك دليل إعجابه ، وثماناً لما تمنحينه من حياة .

إن بريق عيني حسين ، المملوءتين حياة وطهارة ووفاء ، أعز من بريق الذهب . ترينه لتذكرى في حسرة أليمة ، أنه أضاع سعادتك . وسلبك راحة البال وصدق اليقين .

ترعہ ری رہیسیہ، مہلتہ بالجہر والہ سمنہ

